الباب الثاني

الخصائص الفنية

obeikandl.com

الفصل الأول

وصف المكان

المبحث الأول: وصف الطبيعة.

المبحث الثاني: وصف جماليات المكان العمرانية

obeikandl.com

مدخل:

المكان كان ولازال أساساً وثيقاً لدراسة النص الأدبي، في كونه بنية تركيبية يمثل عامل المكان أحد أركانها.

- جاء تعريف المكان في لسان العرب: "الموضع، والجمع أمكنة، كقذال وأقذلة، وأماكن جمع الجمع"[1].

وتتراوح أهمية المكان بحسب الوظيفة التي يشغلها ويمثلها لأصحابه، فالحديقة على سبيل المثال تمثل متنفساً طبعياً لزائريها.

وإذا خصصنا حديقة بعينها، كحديقة هايدبارك[2] الشهيرة بلندن. فندرك أنه إلى جانب كونها متنفساً طبيعياً،فهي تمثل كذلك دوراً ثقافياً وفكرياً عبر ركن الخطباء، حين يتوافد الناس للمشاهدة واستماع وجهات نظر كل خطيب، مما يُكثّف صفة تمثيل هذه الحديقة بالمشاهدة والاستماع وممارسة بعض الرياضات.

ويرى عبدالله الحيدري أنه يمكن تقسيم المكان إلى ثلاثة أنواع، فهناك المكان الأليف، كالوطن حيث الانتماء، والبيت حيث الحماية، والمسجد حيث الطمأنينة الروحية.

وهناك المكان المعادي المكان الذي ينفر منه الإنسان كالسجن مثلاً،

---

(١) لسان العرب، ٤١٤/١٣.

(٢) سيأتي ذكر هذه الحديقة لاحقاً في هذا المبحث.

obeikandl.com

وهناك المكان المحايد حيث لا ألفة وطمأنينة ولا انقباض ونفور[1].

وأرى أن المكان المحايد بهذا المفهوم يكون بقدر ما يثيره في النفس من علامات استفهامية عن ماهية هذا المكان وطابعه العام، فهناك أماكن نراها وندخلها لأول مرة فتثير لدينا مشاعر مختلفة، ونشعر أننا نعرفها أو كأننا قد عشنا فيها من قبل، مع أنها المرة الأولى لنا فيها، وأماكن أخرى نراها فتتوثب مشاعر الضيق والانقباض.

وتصبح كلمة الحياد مدخلاً للغموض؛ بسبب إشكالية تحديد طابع المكان، الإيجابي منها والسلبي، أي الأليف والمعادي.

وقد تختلف مشاعر إنسان عن آخر سلباً وإيجاباً لنفس المكان، فالمكان وطابعه العام يعتمد على مشاعر المرء وتطلعاته الشخصية.

نعم، قد توجد بعض الأماكن المثيرة للتساؤلات عن طابعها وحقيقتها، مما يُوجد بعض الانزعاج أو التوتر، مثل المدرسة حين يذهب الطفل إليها للمرة الأولى، فينتابه الخوف والضيق من هذا المكان. إلا أنه سرعان ما يستكشف مشاعره الشخصية نحو هذا المكان إمّا بالشوق والترحاب أو العكس، بحسب شخصيته نفسها. فيتحدد طابع هذا المكان لديه ضمن الطابع الأليف أو المعادي، ويمكن سوق عشرات الأمثلة

(١) انظر: السيرة الذاتية في الأدب السعودي، ٥٢.

obeikandl.com

المشابهة، بغضّ النظر عن صاحب التجربة، أكان طفلاً صغيراً أم رجلاً بالغاً.

فالمكان المحايد على ضوء هذا التفسير لا يوجد بشكل عام، وإن وُجد، فحيادية بعض الأماكن حيادية مؤقتة، لوقت محدد، ثم تتجلي المشاعر تجاهها، لتصبح ضمن مجالين لا ثالث لهما، وبهذا المفهوم ينعدم وجود المكان المحايد. – في رأيي– على خلاف رؤية الحيدري.

وتختلف الأماكن عن بعضها باختلاف طبيعة ملامحها، فهناك المكان المجدب المفتقر إلى عناصر الحياة، كالصحراء والأطلال الدارسة.

وكما تحمل صور هذا المكان الخالي من دلائل الحياة أحاسيس الوحدة والوحشة، تحمل صورة المكان المزدهر بتلك الدلائل أحاسيس مغايرة، مثل الطبيعة المزدهية بعناصر الحياة اللونية والبصرية:

جنة زمردية تُغرد فيها الأطيار.

وهكذا تتمثل صورة المكان وطابعه النفسي في الذهن بمجرد تحديد المكان.

فكلمة (جهنم) تتمثل تلقائياً في الذهن عبر حفرة عظيمة يشتعل قاعها وجنباتها بالنيران الهائلة.

obeikandl.com

أما كلمة (الكوثر) أو نهر الكوثر فتتمثل بصورة المـــاء العـــذب، وعبر شعور الارتواء من ماء الحياة الذي لا يظمـــأ شـــاربه، ومشـــاعر السرور والحبور والخلود.

فالذهن يُولّد الشعور النفسي المتلازم مع التصور البصري لصور الأماكن، ما يدل على الحيوات المختزلة في الصور المكانية. ونســـتطيع تجربة هذه الرؤية مع صور هذه الأماكن:

- غرفة ضيقة.
- بركة مُلوثة.
- ساحة معركة.

ويستطيع القارئ- والسامع كذلك- أن يشعر بالطاقة/ الحياة المنبثقة من هذه الصور المكانية عبر المشاعر المصاحبة لتصورها.

obeikandi.com

المبحث الأول

وصف الطبيعة

إن غالبية من ارتحلوا للغــرب وارتبطــوا بأماكنهــا وجمالياتهــا ارتبطوا بالدرجة الأولى بجماليات الطبيعة الرائعة.

ويشكل عاملا الطقس والطبيعة المصدر الأساسي لهــذا الجمــال، وبعد ذلك بإمكاننا القول بأن الجماليات العمرانية تأتي في المرتبة الثانية.

وهذا أمر منطقي بالنسبة لنا نحن الشرقيين؛ إذ أنه نادراً ما ننعم في بلادنا المشمسة اللاهبة بصحاريها الممتدة بأجواء مناخية مُشــابهة لتلــك التي في الغرب، والضد يُظهر حسنهُ الضد.

* * *

- هناك رأي شائع بتأثير الطبيعة الجميلة على قرائح الأدباء، لتنثــال أقلامهم شعراً ونثراً بوصف معالم الطبيعة الرائعة من حولهم.

وفي ضوء هذا الرأي جاء تبرير غزارة شعر الطبيعة الأندلســية على سبيل المثال.

obeikandl.com

غير أن هنالك رأياً آخر لعبد الرحمن بدوي، وذلك في تفسيره لماذا كان السويسريون أقل شعراء العالم وصفاً للطبيعة، حيث عزا ذلك لنشأتهم "منذ نعومة أظافرهم بين هذه المشاهد الطبيعية الرائعة الجمال، وتعوّدوا عليها، والعادة تُفلُّ من إرهاف الحساسية، فلا تتأثر كثيراً بالجمال مهما سمت درجته"(١).

وكان عبدالرحمن بدوي قد سبق له زيارة سويسرا زيارة مُطولة، ساح في مدنها وقراها المترامية وانبهر بروعة الجبال الشامخة، والينابيع المتدفقة من شقوق الصخور، والثلوج وهي تتلألأ على قمم الجبال في ضوء الشمس، والصخور المعلّقة في نتوءات الجبال تكاد أن تنقض(٢)..

ففاضت قريحته الشعرية بروعة مشاهداته تلك، فكتب ديوانه الأول **(الحور والنور)**.

إلا أنه لما عاد بعد ذلك في زيارة ثانية لسويسرا لم يشعر بذلك الانفعال الباهر تجاه الطبيعة الخلابة والمشاهدات البيئية الأخاذة، فأدرك أن طول العادة والملازمة الدائمة يفلّ حاسة التذوق الجمالي(٣).

وهذا ما أراه وأؤمن به، فإن النعيم والراحة والهناء والجمال في هذه الدنيا مهما كان رائعاً ومُذهلاً، فإنه يبعث تدريجياً ومع مرور الوقت

---

(١) سيرة حياتي ٢٧٤/١.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢٧٥/١.

(٣)انظر : المصدر السابق ٢٧٤/١.

obeikandi.com

على السأم والملل، بل والتبرم، على عكس نعيم الجنة وهنائها، قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا، خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا"(١)، أي لا يريدون التحول عن هذا النعيم مهما دام واستمر وطال.

*****

- صوّر الشيخ مصطفى عبد الرازق الريف الفرنسي في أكثر من موضع، مثل وصف وادي السون:

"جنة ذات نجم وشجر، وبحيرات وأنهار، نرقى نجادها، فنشرف على منظر يبهر العين جماله، كأنما نرى صورة أبدع الفنان رسمها وتأليف ألوانها، ثم ننحدر إلى وهاد، تحيط بها جبال ترفل في غلائلها الخضر، وحيثما وجهت وجهك، فثمّ خضرة وماء ووجوه حسناء"(٢).

هذا الكلام أشبه ما يكون بشعر منثور في وصف الطبيعة الحسناء، وأغلب رحلة الشيخ إلى فرنسا ثم لندن، تمتلئ بمثل هذه الأوصاف الشاعرية الرقيقة، لملامح الطبيعة ومفاتنها المتنوعة.

ومن أجمل ما قرأت في وصف الريف الفرنسي كذلك، ما كتبه زكي مبارك أثناء إقامته بفرنسا، فبعد أن ضجر من باريس ذهب لرؤية

---

(١) سورة الكهف، آية ١٠٧-١٠٨.

(٢) مذكرات مسافر، ٣٥.

obeikandl.com

الأقاليم الريفية، ويقول في إحدى رسائله المرسلة إلى صديق له، يصف بها منطقة نور منديا، "ولا تسأل كيف كان جمال الطريق، فقد تأنقت الطبيعة تأنقاً لا مثيل له، في هندمة نور منديا، وتتويج حزونها وسهولها ووديانها، بكل رائع شائق من الأزهار والأشجار، وخمائل الكروم، ففي كل واحة وفي كل نجد، وفي كل سهل، ترى المنازل الريفية الصغيرة منثورة في سحر وروعة، كأنها أمان مجسمة تركت مهادها من القلوب، واحتلت بساط الخضراء، وحيثما ألقيت بصرك من نافذة القطار، رأيت الأهالي ناعمين وادعين، ومن حولهم مواشيهم وأطيارهم، وما جمعوا من طيب المحصول" (١).

والصورة الاستعارية عبر جملة(ترفل في غلائلها) في نص عبد الرازق كناية عن نعومة وترف هذه الجبال الخضراء / الشابة، وفيها توظيف بلاغي لما جاء بعده من تناثر مزايا الشباب في الماء والخضرة والوجوه الحسناء. ويشع النص بأوصاف غزلية مشعة بالمعاني للشباب النضر والغض الذي لا يراه الكاتب إلا في صورة أنثوية ناعمة، وهو محق في هذا. ولا تبتعد المعاني عند زكي مبارك عن سابقه عبد الرازق في التشخيص الرقيق للمرأة / الطبيعة، وفي نص مبارك إضافة تأكيدية لأهم سمات المرأة المكتملة الأنوثة وهي الخصوبة، في خصوبة وغدق ريف نورمنديا وقراه وماشيته ومحاصيله.

---

(١) ذكريات باريس، ١٩٩

obeikandl.com

وهذا الوصف للريف الفرنسي من أجمل الأوصاف عن هذه الأرياف السندسية الخضراء، ولا عجب أن تستثير الطبيعة الفرنسية قرائح من ذهبوا إليها؛ لتحولهم إلى شعراء مرهفي الأحاسيس رقيقي الحاشية ينقلون مايشاهدونه من مناظر غناء إلى صور أدبية رفيعة المستوى.

*****

وتزدحم سيرة عبد الرحمن بدوي بوصف المشاهدات الطبيعية والبيئة الرائعة، وهذه سمة أسلوبية لدى بدوي في كتاباته المتنوعة. فالرجل مُفكر في المقام الأول ومتخصص في علوم الفلسفة، ومع ذلك تكتنز سيرته بنظرات عميقة في التاريخ والأدب والسياسة بأسلوب ممتع ورشيق.

نقرأ في إحدى مشاهداته الوصفية عن هولندا:

"هولندا في الصيف عكسها في الشتاء، فهي في الصيف بساط أخضر يمتد من أقصاها إلى أقصاها، وهي في الشتاء ملاءة ناصعة البياض لا يتميز فيها غير البيوت والطواحين المكسوّة بالثلوج.

في الصيف تشاهد العشب الممتد إلى غير نهاية، ترعى فيه البقرات الفريزية المفوّفة الألوان، وضروعها حافلة بالألبان، ونظراتها شاخصة في الأفق البعيد. ولكم طاف بخلدي في أحلام أن أقتني عشرين

obeikandl.com

بقرة، ومرعى واسعاً، وفيلا صغيرة يحيط بها هذا المرعى، في المنطقة الممتدة من ليدن إلى لاهاي"[١].

وفي مشهدٍ آخر عندما كان في النمسا، كتب مُصوراً شروق الشمس في صباح يوم مُنعش: "تجلّى أمامي مشهد لم أر مثله من قبل: جبال الألب في إقليم التيرول وقد كستها غابات شاسعة من الصنوبر والشوح والشربين، والقمم والأودية تستعد لاستقبال أشعة الشمس في لهفة وقشعريرة، وقطرات الندى تتلألأ على الأوراق الإبرية التي تشبه الإبر كأنها عقود متوالية من اللآليء الصافية. وفي إحدى المحطات التي وقف عليها القطار في النمسا صعد فلاح يلبس حلّة خضراء نظيفة،ومحياه جميل جداً ببياضه وحمرته، ورأيته يحمل على كتفه منجلاً كبيراً- وهذا ما جعلني أعتقد أنه فلاح- فرحت أقارن بين هذا الفلاح المصري بوجهه المعوج وثوبه الأغبر المتمزق، وقلت لنفسي: إنَّ بين الفلاح النمساوي والفلاح المصري ألف سنة من الحضارة، فأنى للثاني أن يقطعها"[٢].

وقبل أن نودع هذا المبحث أود إلقاء نظرة وصفية على حديقة لندن الشهيرة هايدبارك- بصفتها معلماً حضارياً لمدينة لندن- وهايدبارك ليست مجرد حديقة يعبق في أرجائها شذى الزهور، بل هي ربوع خضراء تمتد على مرمى البصر، يدخلها الزائر إن شاء راجلاً وإن شاء راكباً، تؤمها عربات الجياد، كما تؤمها السيارات كذلك.

---

(١) سيرة حياتي ٣٠٣/١.

(٢) المصدر السابق ٧٧/١.

obeikandi.com

وقد كانت هايدبارك فيما مضى حديقة ملكية مُغلقة لا تردها إلا الطبقة الأرستقراطية الحاكمة والنبلاء ونحوهم، ثم أصبحت مشاعاً للجميع يقصدها الناس من شتى الأجناس.

وقد استفاض أحمد عطية الله في وصف هايدبارك، وكيف أصبحت مهرجاناً بشرياً رائعاً، لاسيما في أيام العطلات:

"ففي صباح الأحد، تجد المقاعد الخشبية المصفوفة على ضفافه عامرة بالجالسين أفراداً وجماعات، كل جماعة معها كلبها، حتى لا يقل مجمع الكلاب –في عدده وفي مرحه– عن مجمع الصغار والأطفال واللاعبين، الذين يعاكسون هذه الكلاب فيرمون إليها بالكرات وقطع الأخشاب في مياه السربنتين، فتتنافس الكلاب في الوصول إليها مخترقة أسراب الأوز والبجع البيضاء التي تسرح وتمرح طليقة على مياهه الهادئة.

ورواد هايدبارك من جميع الأوساط والطبقات، وفي أيام الأحد، وفي أيام الصيف تجد هايدبارك، ومروج هايدبارك الفسيحة غاصة بهؤلاء جميعاً:

"جماعات العمال، والعمال العاطلين، جالسين على الحواجز الداخلية الواطئة، أو نائمين تحت ظلال الأشجار أو تحت عين الشمس الدافئة.

وجماعات الفتيات العاملات من خادمات المنازل والمطاعم والمتاجر، يملأن ممرات هايدبارك وطرقاتها، يوزعن ابتساماتهن على هؤلاء الجالسين ويُجبن على الملاحظة بالملاحظة، والنكتة بالنكتة، ويرددن على تحية هؤلاء الجالسين بلا كلفة ولا امتعاض.

وحول كشك الموسيقى، تجد الآلاف من الجالسين والجالسات، لاسيما من العجائز اللائي يقطعن الصباح كله يستمعن إلى الموسيقى ويقرأن ما معهن من قصص أو صحف"(١).

والنص مجتزأ من مشاهد متعددة لهذه الحديقة، المعلم والمقصد الترويجي لعامة الناس وخاصتهم؛ فكل من يذهب للهايد بارك يجد ملاذاً ومتكأً، من يريد الاسترخاء ومن يرغب باللعب الهادئ أو دخول المسابقات التنافسية في سباق زوارق بحيرة السربنتين، ومن يريد القراءة أو التريض في جنبات الحديقة. ويعكس النص مشاهد تسجيلية بأسلوبٍ تقريري هادئ، فهو يشرح حقيقة المشهد أو المشاهد المتعددة، دون ملل أو رتابة في تقصي أجزاء ومعالم هذه الصورة الفسيفسائية لهذه الحديقة.

---

(١) لندن، ٣٠٨ وما بعدها.

obeikandl.com

المبحث الثاني

وصف جماليات المكان العمرانية

يتسع طابع الحضارة الغربية لاحتضان كافة المدارس الفنية والفكرية، ومثلما نشأت خطوط الأزياء النسائية (الموضة) في باريس ولندن وميلانو، نشأت كذلك المدارس الفكرية الهائلة، وما تولّد وتفرع عنها من أفكار ومذاهب.

وربما يكون هذا أحد أسباب استمرار وازدهار الحضارة الغربية التي لا تضيق بشتى الأطياف الفكرية في الأدب والسياسة والعمران والأزياء والفن.

وفي هذا المبحث نسلط الضوء على الجماليات العمرانية في الغرب.

- وأود في البداية إيضاح أن النسق العمراني الشائع في أوروبا مأخوذ أساساً من النسق العمراني الإغريقي

obeikandl.com

فعندما قامت النهضة الأوروبية فيما يُعرف بعصور النهضة[1] ارتأت أن تنتمي لحضارة عريقة، فكان أن انتمت أو احتذت أمجاد الحضارة الإغريقية والرومانية من بعدها في تشييد نهضتها العمرانية.

*****

يفعل المكان سحره في الرائي متى ما أثار ذهوله وشروده، وعنصر الدقة جوهري لإحداث الانفعال النفسي المحفز للإبداع.

ولاشك بأن لأقدمية المكان وتاريخه دوراً في جلاء المشاعر، وهذا يتوافر في أوروبا بالذات، أكثر بكثير من أمريكا المُكتشَفَة حديثاً، مقارنة بأوروبا، فالولايات المتحدة الأمريكية لم تُؤسس فعلياً كدولة إلا منذ ٢٣٤ عاماً؛ لذا تفتقر هذه البلاد الحديثة نسبياً إلى الأماكن التاريخية بعبقها وغموضها الأسطوري.

بل إن أقدم شاهد معماري في الولايات المتحدة أصوله أوروبية المنشأ، وهو تمثال الحرية المشيد على مدخل مدينة نيويورك، مُستقبِلاً الوفود القادمة من الجانب الأوروبي.

---

(١) ابتدأ عصر النهضة في أوروبا بسقوط القسطنطينية في يد محمد الفاتح عام ١٤٥٣م ـــ. ففر علماء القسطنطينية النصارى إلى البلدان الغربية في روما وباريس وغيرها، ونشروا علومهم = وآدابهم، وابتدأ عصر النهضة مع مجيء هؤلاء العلماء والأدباء الفارين من القسطنطينية بعد أن أصبحت في يد المسلمين – مع العلم أن محمد الفاتح أكرمهم وأحسن معاملتهم– وقد كره النصارى أن يؤرخوا بداية عصر نهضتهم بتاريخ سقوط أعظم مدينة نصرانية في ذلك الوقت: القسطنطينية ، فجعلوا بداية عصر النهضة العام ١٥٠٠م.

obeikandl.com

ولا مناص لنا من الشواهد الأوروبية للدلالة على الجماليات العمرانية.

- تأتي دور العبادة كالكنائس والأديرة على رأس هذه الجماليات بما حوت من دقة وإتقان في التشييد والتلوين والضخامة، مثل كنيسة مدينة كولونيا الألمانية العظيمة البنيان.

ومن أقدم النصوص الأدبية عن هذه الكنسية ما كتبه الرحالة الأديب **حسن توفيق العدل**[1] في كتابه (رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا) ضمن مشاهداته الأوروبية:

"نزلت قاصداً أول ما يحرك إليه الغريب قدمه، ألا وهي كنيستها الكبرى التي اشتهرت بحسن موقعها وجمال صنعها، وريثما طوحتُ إليها

---

(١) حسن توفيق العدل: حسن توفيق بن عبد الرحمن العدل، (١٨٦٢- ١٩٠٤م)، باحث ومترجم، وأستاذ للغة العربية، درس في الأزهر ودار العلوم، واشتغل في ألمانيا، معلماً للغة العربية بالمدرسة الشرقية ببرلين، وقد تخرّج على يديه عدد من المستشرقين، وقد عمل بعد ذلك معلماً للغة العربية بمدينة كمبردج في بريطانيا، له جهود مشكورة في خدمة اللغة العربية في البلدان الأوروبية التي عاش فيها، توفي فجأة وهو خارج من عمله في كمبردج، ونقل جثمانه إلى القاهرة، ودفن فيها.

من آثاره:

- الرحلة البرلينية.
- مرشد العائلات إلى تربية البنين والبنات.
- أصول الكلمات العامية.

انظر:

الأعلام ١٨٦/٢.

obeikandl.com

النظر أرتني منها بناء شاهقاً، وجبلاً سامقاً، تكاد ببرجيها تـنطح ثـور السماء، ذروتها تخالها للعقرب لسعاء، فدخلتها ضمن الـداخلين أمثـالي المتفرجين، فما درينا ألاتساع رحباتها نهشّ، أم لارتفاع دعائمها نُدهش؟ ثم أن أردنا نتسنم سماوتها، ونرتقي ذروتها، فعلونا يقدمنا الدليل، لكـيلا تشكل علينا السبيل، ومازلنا نصعد درجات، ونسلك معاطف ووهـدات، حتى إذا علونا ذروتها، ورقينا قمتها، لاحت لنا عجائب المنـاظر، وقـد انتعش لرؤيتها الخاطر، ثم هبطنا إلى المنزل الأول والمكـان السـواء، وحدثنا من في الأرض– وأستغفر الله – بأخبار السماء.

وبالجملة فلقد قام بناؤها دليلاً على ما صنعت يد الإنسـان ناطقـاً بلسان الحال والجنان:

تلـك آثارنـا تـدلّ علينـا فـانظروا بعـدنا إلى الآثـار

وقد أخبرني بعض علماء الألمانيين وأدباؤهم، وكان يتفرج معنـا، أن الدراهم التي صُرفت في بناء تلك الكنيسة هي ربح القمار، وذلـك أن كثيراً من الشركات قد فرضت مقداراً من الدراهم لمن أراد اللعب، وثلث المجموع يأخذه من تخرج له القرعة، والثلثان الباقيان يُصرفان في البناء.

وحينما سمعت ذلك منه قلت له: كيف تؤسسون بيت العبادة بدراهم هي الحرام بعينه؟ فالتفت إلي، وقد ضمّ كتفيه، ثم أرسـلهما قـائلاً هـذه الجملة:

Lucreum non oleta

obeikandi.com

فحينما طرقت مسمعي أخذني الضحك حتى كدت أستلقي، وذلك أن هذه الجملة مثل مشهور بأوروبا، وهو لاتيني اللفظ، ومعناه "الربح لـــيس له رائحة"[1].

- ❖ وجاء النص في صياغة تصويرية دقيقة عبر الصـــور التشبيهية، لتقريب سعة الكنيســـة وضـــخامتها للـــذهن. والكاتب غير مبالغ إطلاقاً في هـــذه الصـــورة البيانيـــة، فالكنيسة ضخمة وعملاقة بدرجة تحبس أنفـــاس الرائـــي المطلع في جنباتها، حتى يظنها من علو ارتفاعها متصلة بأبراج السماء ونجومها.

وقد جمعت العبارات بين الخفة والتمكن والدقة والتزام الكاتـــب الجناس في عبارته الوصفية خلال وصف الكنيسة فقـــط – قبـــل أن يعدل إلى إرسال الكلام في آخر النص دون تكلـــف العبـــارة وتـــأنق البديع.

(١) رسائل البشرى في السياحة في ألمانيا وسويسرا. حسن توفيق العدل. دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي ط١/ ٢٠٠٥م، ٣٩ + ٤٠.

obeikandl.com

- وهناك كنيسة أخرى لا تقل شهرة عن كنيسة كولوينا، ولكنها تحولت إلى مسجد شهير، ثم تحولت إلى متحف.

إنه مسجد آيا صوفيا الشهير بمدينة إستانبول بتركيا.

وقد تحدث يحيى حقي عن هذا المسجد، وكيف أنه كان قبل الفتح الإسلامي من أشهر الكنائس الأرثوذكسية، وسُمي كنيسة آيا صوفيا، أي القديسة صوفيا(١).

يقول:

"ولا يستطيع زائرها أن يتبين جمالها وهو بالقرب منها، بل يجب أن يبتعد عنها مسافة كبيرة، لينظر إليها وإلى قبابها، واتساق خطوطها، ولكن حين دخل محمد الفاتح مدينة إستانبول فاتحاً، هجر المسيحيون هذه الكنيسة، ويقال دفاعاً عن محمد الفاتح أنه لم يجد مفراً من أن يضع يده عليها ويحولها إلى مسجد، فغطى جميع النقوش المسيحية التي على الجدران بالطلاء، وأقام مآذن على سطحها وعلق أربع لافتات كبيرة جداً بأسماء سيدنا محمد والخلفاء الراشدين.. وعندما أعلن مصطفى كمال أن تركيا دولة علمانية، جاء في ليلة دار فيها الخمر برأسه، وطلب أن يتحول مسجد آيا صوفيا إلى كنيسة، وقد أخذ وزراؤه يلاينونه ويلاطفونه حتى وصلوا إلى حل وسط، وهو تحويلها إلى متحف، وبذلك أُزيل الطلاء عن الجدران وظهرت الرسوم المسيحية، ولكن لم يجرؤ أحد أن يُنزل

(١) انظر: ذكريات مطوية، يحيى حقي، ٧٠.

obeikandl.com

اللافتات المكتوبة عليها أسماء الرسول وأسماء الخلفاء فبقيت كما هـــي. إنني لم أشعر في يوم من الأيام ببرودة جو وبرودة مكان، كما شـــعرت بالبرد وأنا أزور متحف آيا صوفيا، فلا هو كنيسة ولا هو جامع"[1].

ولاشك بأن تركيا فقدت الكثير من التزامها الإسلامي، كونها كانت آخر معاقل الخلافة الإسلامية، قبل سقوطها على يد من عُرفوا بالكماليين أنصار أتاتورك وأشياعه، الذي قام بتحويلها إلى بلدٍ بلا هوية واضـــحة، بلد سكانه مسلمون يعيشون وفق النظام المدني السويسري، بعد أن أبطل أتاتورك الشريعة الإسلامية، وغيّر الحروف العربية إلى اللاتينية، وكأن المسجد الشهير الذي كان فيما مضى كنيسة شهيرة، يحكي دوران عقارب الساعة إلى الوراء، يوم تحول الجامع الشهير بغرناطة الأندلســية- هــو الآخر- بعد سقوط الأندلس إلى كنيسة لازالت حتى وقتنا الحاضر.

ونستطيع تصور كثرة الأحداث والحقب المتعاقبة إلى مســجد آيــا صوفيا، وكيف قامت دول وذهبت أخرى، ونشبت فيها حروب ضروس. والمسجد شاهد عليها، مُحتفظ بكبريائه، كشيخ جليل يتوكأ علـــى عصـــاه بوقار وثبات، وآيا صوفيا من الجمال والإبداع بحيث لا يمكـــن الإلمـــام بكامل بنيانه وجنباته الرحيبة، ومشاهدة هندسته الفريدة وتصميمه الرائع في لوحة بصرية متكاملة إلا بالابتعاد عنه لمسافات كبيرة.

*****

(١) المصدر السابق، ٧٠ وما بعدها.

obeikandi.com

وتدخل في نطاق العمران الجميل الشائعة في الغـرب المتـاحف، والمتاحف منتشرة في الغرب كما هي منتشرة في الشرق، غير أن دورها وأهميتها في المجتمعات الغربية مهم جداً.

وهناك مئات أنواع المتاحف في الغرب، بحيث يحار المـرء مـن كثرة تخصصاتها وتنوعها: متاحف للشخصـيات الشـهيرة، ومتـاحف للمعروضات والآثار النادرة، ومتاحف للوحات النفيسة لعصور قديمـة، ومتاحف لفنون العصر الحديث، ومتاحف للعلوم والتكنولوجيا.. وغيرها من فروع العلم.

وقد تحدث أكثر من مرتحل عن هذه المتاحف، فأحمد عطيـة الله عندما زار متحف الشمع الشهير بلندن المسمى متحف مدام توسو، وجال في أرجائه مُستطلعاً، رأى فيه مشاهير العالم من مختلف العصور، على هيئة مجسمات شمعية بالغة الدقة والتشكيل في صنعها، يبتسـم لأحـدهم ليبادله الابتسام والترحيب، ليجد أنه إنما يبتسـم لتمثـال شـمعي فـائق التكوين. وعندما يعيد الكرة ويبتسم لأحدهم، وهو يعلم أنه تمثال صامت، فيبتسم له التمثال ابتسامة ودودة، لينتبه عطية الله بأنه إنما ابتسم لشرطي حارس من حراس المتحف الواقفين بسكون واعتداد [1]، يحسبهم الزائر لأول وهلة تماثيل شمعية لا تراوح مكانها. ويضم متحف مـدام توسـو مشاهير العالم في السياسة والأدب والفن والرياضة، تتربع فـي صـدر

(١) انظر: لندن ٥٢.

obeikandl.com

المتحف تماثيل العائلة الملكية البريطانية منذ وقت ملوكها الغابرين حتى ملكتها الحالية وأمرائها، وفي ركنٍ آخر سياسيّو بريطانيا ودهاتها العسكريين، وفي ركن ثالث مشاهير ساسة العالم وحكماؤه من ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا، إلى المهاتما غاندي الأب الروحي للقارة الهندية الحديثة، وغيرهم.

أمّا في ركن أفذاذ الأدباء فيظهر جورج برنارد شو بنظرته الساخرة، والدكتور جونسون بنظرته المتأملة، وغيرهما الكثير، كما يظهر في أركان أخرى مشاهير الرسامين والنحاتين والموسيقيين ونوابغ الممثلين ونجوم الرياضة، على اختلاف عصورهم في قاعة واحدة، كلّ أولئك في متحف جمعهم، في متحف الشمع الشهير مدام توسو.

إن التجول في المتحف مدرسة تعليمية تثقيفية بأسلوبٍ ممتع أيما إمتاع، أسلوب يلبي الغاية الجمالية في التذوق الفني للألوان والتشكيل والدقة، كما يلبي الحاجة المعرفية الماسة وراء كل شخصية من شخصيات المتحف، ليخرج المرء بعد الإطلاع والتأمل لتلك الشخصيات الشمعية الماثلة أمامه بثقافة عالية عن خلفيات هؤلاء المشاهير، ثقافة متنوعة المشارب، فخلف كل تمثال قصة حياة مميزة غريبة أو مأساوية.

إن المتحف لا يكتفي بعرض مشاهير الأخيار والناجحين، بل يعرض مشاهير الناس خيارهم وشرارهم، وما على المتطلع الذي يرمي تثقيف نفسه سوى المجيء للمتحف مرات عديدة، يستكشف تلك

الشخصيات؛ ليرى نفسه قد ألمّ وتثقف بأسلوبٍ رائعٍ و غير ممل، ومتى ما أراد الاستزادة والمعرفة عن الشخصيات المثيرة لفضوله، فما عليه سوى الرجوع للكتب يستقرئها، ويستفهم منها:

يقول عطية الله عن ركن شخصيات الفكر والأدب:

"في مؤخر الجمع أرقب شوسر بلحيته السوداء المستديرة وبوجهه السمح وابتسامته الهادئة ثم بثوبه من المخمل الأسود، هذا شوسر الذي كتب لنا قصص كونتربري، وبجانبه وقف شكسبير بملابس عصره، وقد وضع يده تحت خده يفكر.. وبرناردشو بذقنه الطويلة وشعره المسترسل وبضحكته التهكمية"(١).

وعدا متحف مدام توسو وتماثيله الشمعية الزاهية، تكتظ لندن بأنواع المتاحف على اختلاف أنواعها: متحف يشرح وسائل النقل منذ بداية اختراع العجلة وحتى أحدث أنواع السيارات الحديثة، ومتحف آخر لكنوز مستعمرات بريطانيا يوم كانت إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، تنتشر مستعمراتها في الهند والصين وفي أفريقيا وكندا وجزر المحيط الهادي.

زار عطية الله متحف الحرب في لندن، ووقف يتأمل أدوات الحرب وأسلحتها منذ القدم، بدءاً من الأسلحة اليدوية البدائية، كالقوس

(١) المصدر السابق ، ٥٥.

obeikandl.com

والرمح،و مروراً بالمدافع الضخمة، وحتى الغواصات والمدرعات والمدمرات، وبجانب كل نوع بطاقات توضيحية تشرح عمل كل آلة وكيفية استخدامها، وعند ركن المستعمرات البريطانية وقف متأملاً في أحد جوانبه، يقول:

"وفي ركن من هذه القاعة، يقف الزائر المصري متمهلاً أمام معروضات كُتبت بالعربية: الطريق إلى القدس الشريف، حارة كذا، الضبطية، ومعروضات أخرى بالتركية. هذه الآثار من فلسطين، قدمها الجيش الفاتح. وفي النافذة الزجاجية يلمح قطعة من القماش الأسمر الخام مما يستعمله الفلاحون، كتب عليها بالحبر العادي، وبخط عربي ملوث بالمداد: "حاكم القدس الشريف..." وبجانب هذه القطعة من القماش الأسمر، صورة فوتوغرافية تقص لنا قصتها: هذه القطعة من القماش الأسمر الملوث بالمداد، كانت راية السلام والأمان، وقد حملها الحاكم التركي للقدس مع طائفة من زمرته رمز التسليم للفاتح الإنجليزي، فبذلك أُسدل الستار على فصل من رواية لا تنتهي أدوارها، بدأت منذ كان صلاح الدين يصول ويجول في هذه السهول المقفرة المجدبة منذ قرون، بل قبل ذلك"(١).

ولاشك بأن توقف عطية الله عند هذا الركن وتمهَله في تأمل ما يرى ويقرأ، كان لاتصال ما يراه أمامه معروضاً للمتفرجين بتاريخ أمته

(١) المصدر السابق، ٢٥٤ ، ٢٥٥.

obeikandi.com

وتاريخه، عندما يرى أرضاً مقدسة لأجداده وبني جلدته في حوزة مستعمر، وتُعرض ضمن ممتلكاته في المتاحف العالمية.

ويشاهد في ركنٍ آخر لوحات كثيرة تشرح انتصار بريطانيا على عدوتها ألمانيا، عندما قامت الحرب العالمية، كل هذه الأحداث التاريخية الجسام مرسومة في لوحات زيتية، تحكي قصص وحكايات أبطال الحرب في ساحات الوغى وخنادق القتال.

وعندما تعرض بريطانيا تاريخها عبر هذه المعروضات واللوحات والأدوات الحربية، فلا بدّ من التّساؤل: هل تهدف لتعليم الزائرين مدى عظمتها وشمولها في سائر القارات؟ أم تعلّمهم شدة بأسها واستبدادها عن طريق هيمنتها على شعوب الأرض وخيرات بلادهم؟ أم تهدف لتعليم أبنائها بارتقائهم النوعي عن سائر شعوب الأرض، لانتمائهم لإمبراطورية مترامية الأصقاع قوية الشوكة ومُهيبة الجانب؟

ومن ضمن المتاحف المتخصصة متاحف عرض اللوحات المبهرة لكبار الفنانين، وقد تحدث أكبر من ارتحلوا، وزاروا تلك المتاحف عن شدة الانبهار والذهول وحبس الأنفاس مما شاهدوه من لوحات رائعة لمشاهير الفنانين وأعمالهم الجميلة، منذ عصر النهضة إلى عصر الثورة الفرنسية، ثم عصر النهضة الصناعية، وحتى فناني القرن العشرين.

لوحات مذهلة ورائعة بموضوعاتها وألوانها، تثير حماسة وشغف من يقرأ عنها، فكيف بمن يشاهدها رأي العين؟

obeikandi.com

يقول توفيق الحكيم معلقاً على لوحة للرسام ليوناردو دافنشي عن فتى الخمر:

"إنها صورة فتى لا أكثر ولا أقل، ولكن اللون والتلوين، كأنهما السحر قلب الصورة، فإذا هي عنقود من العنب، من عنب فلورنسا الأحمر الداكن! ما نظرت مرة إلى هذه الصورة إلا صحت في نفسي: يا للمعجزة! الفنان الذي استطاع بريشته أن يجعل الآدمي عنقوداً، ولكنه التلوين ! إن الرسم ليهبط أحياناً إلى المحل الثاني في بعض آثار المصورين. لقد قيل: إن ليوناردو كان يصنع أو يطبخ ألوانه بنفسه في معمله المغلق، لقد كان أكثر مصوري عصر النهضة يفعلون ذلك فيما يظهر، وكان تركيب ألوانهم سراً يحفظونه كأنه تركيب "إكسير الحياة". وفيمَ العجب؟ إن أسرار اللون في الصورة الفنية هو سر خلودها! إنه إكسير حياتها"(١).

- ❖ إنها الحرفة السرية لأولئك الرسامين: الألوان، وكيفية صمودها وخلودها عبر مئات السنين، وجعلها تزهو لرائيها الأول منذ عصر النهضة بنفس البريق، نفس الإشعاع والوهج الآسر لمن يراها مرة تلو مرة، وقرناً بعد قرن.

وتحدث عبد الرحمن بدوي كذلك في سيرته عن تأثره الشديد بما شاهده في متاحف هولندا، وكان قد أمضى قرابة مائة ساعة يتطلع ويتأمل

---

(١) زهرة العمر، ٨٥ بتصرف يسير.

obeikandl.com

مأخوذاً في لوحات فناني أوروبا، وتعلق بالرسام الهولنـــدي رامبرانـــت متحدثاً عن إمكانية المرء استلهام نفسية الفنان من خلال مشاهدة واستقراء لوحاته[١]. ورامبرانت فنان مرهف يعكس نظرته الداخلية للحيـــاة مـــن خلال عشرات الصور المعيشية الشائعة في البيت والمدرســـة والأســـرة والأولاد أو الجماعات المهنية، من خلال رسم خادمة تقشـــر البطاطـــا والطماطم والكرّات، تجار يحترفون تجارة الجوخ، طلاب طب يتلقـــون درساً في التشريح[٢]. وهذه الواقعية "لا تجد لها نظيراً عند سائر الفنانين الأوروبيين من عصر النهضة حتى القرن التاسع عشر"[٣].

ومن المتاحف المنتشرة في الغرب كذلك متاحف تـــاريخ الجـــنس البشري، والتي تعتقد بنظرية النشوء لداروين[٤] التي ترد أصل الإنســـان الأول إلى قرد، تطور تطوراً نوعياً عبر مئات السنين حتى صار إنساناً.

* * *

---

(١) انظر: سيرة حياتي ٣٠١/١.

(٢) انظر: المصدر السابق ٣٠٣/١.

(٣) المصدر السابق ٣٠٢/١.

(٤) تشارلز داروين: (١٨٠٩– ١٨٨٢). ولد في إنجلترا ، و هو صاحب نظرية (الانتخاب الطبعي) وكتاب (أصل الأنواع)، ومفاد نظريته نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبعي أو الاحتفاظ بالأعراق المفضلة في أثناء الكفاح من أجل الحياة ، وقـــد هوجمـــت نظريته من قبل رجال الدين في العالم أجمع وقتما جهر بها. وظل داروين حائراً حول ما أسماه الحلقة المفقودة التي تتوسط الانتقال من طبيعة القرد إلى الإنسان الحديث.

انظر : الموسوعة الحرة ويكيبيديا

obeikandl.com

حرص كاتبو السيَر على استكشاف الأماكن التاريخية والجميلة أو التي قرأوا عنها، باستثناء بعض الكتاب الذين لم يحفلوا كثيراً بهذا الجانب، وقد يكون وراء ذلك تشبعهم بثقافتهم الأم، وحرصهم عليها، أو لاتخاذهم مواقف شبه مناوئة للغرب، لاسيما وأن أغلب كاتبي السير – ضمن هذه الدراسة– عاصروا عهوداً سياسية مضطربة، كانت فيها مصر في مواجهة شبه دائمة مع القيادات الداخلية والمطامع الخارجية، ما جعل الأدباء مُثقلين بالمواقف الشخصية حيناً، والجماعية حيناً آخر.

فرحلة رضوى عاشور مثلاً، لا تُشعر قارئها باحتفاء الكاتبة كثيراً بالأماكن، قدر احتفائها بالأشخاص والحوادث، وحالما ناقشت أطروحة الدكتوراه، سارعت لأخذ إشعار من الكلية لإثبات حصولها على الدكتوراه، ولم تنتظر موعد التخرج(١)، وكان بإمكانها أن تغتنم الوقت المتبقي حتى موعد حفل الخريجين، لإثراء ذاتها وثقافتها، وللترويح كذلك في أحضان الطبيعة الجميلة التي وصفتها في سطور قليلة جداً،أو زيارة معالم المدينة ومتاحفها، فلا نجد هذا الحرص لديها لمثل هذه الزيارات. وعندما قامت بزيارة متحف الفن الحديث، كانت بصحبة زوجها الذي التحق بها بعد ذلك لفترة وجيزة فقط.

في ذلك المتحف الشّهير بمدينة بوسطن بالولايات المتّحدة الأمريكيّة، لفت انتباه رضوى عاشور بشدّة لوحة بيكاسو التي رسمها

---

(١) انظر : الرحلة، ١٧٢

إثر مذبحة قرية جرنيكا[1] بإقليم الباسك بأسبانيا عام ١٩٣٧م، – وقد أصبحت هذه اللوحة أشهر لوحة سياسية في القرن العشرين–، فكتبت عنها:

"لوحة بألوان الصور الفوتوغرافية في الصحف اليومية، أسود ورمادي وأبيض، في أقصى اليمين شخص يرفع يديه ورأسه إلى أعلى مستنجداً بطاقة مربعة من الضوء ولا يصل.. وامرأة تطل من نافذة بأعلى يمين اللوحة برأس مندفع، ويد تقبض بعزم نبيّة على مصباح صغير مضاء بفتيل، والمصباح يلامس آخر أكبر، يمزج بين أشكال المصباح الكهربي والشمس والعين[2]".

ومن وصف اللوحة يشعر المرء باستغراق كامل في التأمل، ربما لملامسة أوجاع رضوى وزوجها الفلسطيني، فحالما سألته بعد مغادرتهما المتحف عما يفكر، أجابها:

"في مذابحنا التي لم يرسمها أحد بعد"[3].

---

(١) انظر: المصدر السابق ١٤٣.

(٢) المصدر السابق، ١٤٢.

(٣) المصدر السابق، ١٤٥.

obeikandl.com